



خاطبتني بها هذا النهار «

وفيا عدا الفتية الصاحبين في الحانة كان جميع
أهل القرية في فراشهم نائمين ، فقتل داود في هدوء
إلى غرفته في بيت أبيه ، وجمع متاعه القليل في
حزمة حملها على عصا وانطلق في الطريق الخارجة
من فرنوى .

ومر بنعم أبيه وقد تجمعت في حظيرتها
الليلية - وهذه النعم هي التي كان يرعاها كل يوم
فيتركها مشردة بينما هو يكتب الشعر على قصاصات
من الورق ، فرأى نوراً لا يزال مضيئاً في نافذة إيفون ،
فزغزع غزيمته شيء من الوهن المفاجئ . ومن
الجاثر أن يكون معنى ذلك النور أنها قد ندمت ،
ساهدة ، على ما بدا من غضبها ، وأن صباح الغد قد
يحمل معه ... ولكن لا ! لقد استقرت غزيمته ،
فليست فرنوى بالمكان اللائق به ، فما فيها من
إنسان واحد يشاطره آراءه وأفكاره . وهناك على
مدى هذه الطريق يقوم حظه ومستقبله .

وكانت الطريق تمتد مسافة ثلاثة فراسخ في
خط مستقيم كأخود المحراث ، وهي مسافة قطعها
الفتى في الظلام . وكان أهل القرية يعتقدون أن هذه
الطريق تصل على الأقل إلى باريس . واسم باريس
هو الاسم الذي كان الشاعر يهتف به لنفسه في أغلب
الأحيان كلما مشى من مكان إلى مكان . ولكن

إني أسير في طرق كثيرة باحثاً عما سيكون .
أحل قلباً صادقاً قوياً يضيئه الحب
فهل ترى تقوم في هذه الطرق ، في معركة الحياة ،
إلى إصابة ما كتب لي في لوح القدر
أم إلى تفاديه أم إلى تلطيفه أم إلى تسويته ؟
« من الشعر غير المطبوع لداود ميجنوت »

انتهت الأغنية ، وكان المغنى هو داود ، وكان
المكان إحدى قرى الريف ، فصفت الجماعة
الصغيرة الملتفة حول مائدة الحانة تصفيقاً حاداً هو
صدى حماسهم القلبية ، فقد دفع الشاعر الصغير
ثمن الشراب . ولم يشذ عن الجماعة غير موسيو
باينزو مسجل العقود ، مكتفياً بأن هز رأسه عند
سماع ذلك الشعر ، لأنه من أهل العلم ولم يكن قد
شارك القوم في احتساء الخمر .

وانطلق داود إلى الطريق الرئيسية في القرية
حيث أطار هواء الليل ما بقي في رأسه من أثر الخمر
فذكر أنه وإيفون قد تشاجرا في أثناء النهار ،
وأنه قد اعتزم أن يغادر بيته تلك الليلة ليبحث
عن الصيت والشرف في العالم الواسع وراء هذه
القرية الضيقة .

وقال الفتى يحدث نفسه في شيء من الزهو
البهيج :

« ومتى جرى شعري على ألسن الناس جميعاً
فقد تفكر يومذاك في الكلمات الشديدة التي

ضخم كهامته ولكنه يرققه بالصناعة والعادة :
« نتدخل إلى العربية » ، ولم يكن سامع هذا
الصوت ليستطيع غير الطاعة ؛ وعلى الرغم من أن تردد
الفتى لم يطل ، فإن تكرار الأمر من السيد قضى على
كل أثر للتردد ، فارتفعت قدم داود من تلقاء نفسها
إلى سلم العربية وقد رأى في الظلام سيدة جالسة على
المقعد الخلفى ؛ وبينما هو يتأهب للجلوس على المقعد
المقابل إذا بصوت السيد الضخم يخضعه لأمره من
جديد وقد قال :

« لتجاس إلى جانب السيدة »

وجلس السيد على المقعد المقابل ، ومضت
العربة تصعد المرتفع . وكانت السيدة منكشة في
مكائها صامتة لا تنطق ولا تتحرك . ولم يكن في
مقدور داود أن يحكم من منظرها إذا كانت صغيرة
أو كبيرة ، ولكن شذا عطرياً رقيقاً انبعث من
ملابسها أتى في روع خياله الشعرى أن وراء ذلك
السر الغامض شيئاً جميلاً . إذن هو على باب إحدى
تلك المغامرات التي كثيراً ما حلم بها ، ولكنه حتى
هذه اللحظة لم يهتد إلى مفتاح ذلك الباب ، إذ لم
ينبس أحد بكلمة في أثناء جلوسه مع رفقة الصامتين
وبعد ساعة لاحظ داود من خلال النافذة أن
العربة تجتاز طريقاً في إحدى المدن . ثم وقفت العربة
أمام بيت مغلق مظلم ؛ ونزل أحد الخدم من العربة
فدق الباب دقاً عنيفاً سريعاً ، ففتحت نافذة مشبكة
من الطابق العلوى وأطل منها رأس معصوب وسمع
صوت يقول :

« من أنتم يا من تقلقون الأشراف الناعمين في
مثل هذه الساعة من الليل ؟ إن بيتي مغلق . وليست
مثل هذه الساعة هي الساعة التي يبق فيها السائحون

داود لم يتعد من قبل عن قريته مثل هذه المسافة
الطويلة .

طريق الشمال

قطع الفتى ثلاثة الفراسخ في خط مستقيم ، ثم
وقف متحيراً ، فقد التقت الطريق بطريق أخرى
أوسع منها ترسم معها زاوية قائمة . فبقى لحظة
لا يستقر على رأى ، ثم سلك طريق الشمال .
وفي هذه الطريق العامة الأعظم شأنًا من سابقها
رأى الفتى آثار عجالات حديثة المرور ، وبعد نصف
ساعة رأى العربية التي خلفت هذه الآثار ، وهي
عربة هائلة ثقيلة غرزت عجالاتها في مجرى موحل
عند قاعدة تل شديد الانحدار ، وكان السائق
ومساعدوه في فجة وصخب يشدون لجم الخيل في
عنف ليستحثوها ولكن على غير طائل . وقد وقف
على إحدى جانبي الطريق سيد ضخم الهامة يرتدى
السواد ، وإلى جانبه سيدة هيفاء القوام متشحة
بعباءة ضويلة خفيفة .

وأدرك داود افتقار الخدم إلى المهارة فيما يبذلون
من جهد لإخراج العربة من وحلتها ، فتقدم في
هدوء ، يتولى إرشادهم إلى ما يجب أن يعملوا ، فطلب
من الخدم الواقفين خارج العربة أن يكفوا عن
صخبهم وأن يوجهوا جهدهم وقوتهم إلى العجلات
وأن يكتفي السائق وحده بتحسيس الخيل بصوته
المادى . وأسند داود كتفه القوية إلى مؤخرة
العربة ودفعها دفعة شديدة حركتها فاجتازت
العجلات المجرى الموحل إلى الأرض الصلبة ، فأسرع
الواقفون في الخارج بالتسلق إلى أمانهم .

ووقف داود لحظة على قدم واحدة ، فلوح
الرجل الضخم الهامة بيده في الهواء وقال في صوت

«مولاي... لو كنت على علم بمقدمكم لأعددت ما يجب لمقامكم الرفيع من أسباب التكريم . وعندى الآن خمر ودجاجة باردة وقد يكون هناك . . . »
فقال المركزيز وقد بسط أصابع يده الغليظة البيضاء :
« الشموع . . . »

قال الرجل : « أمرك يا مولاي »
وأحضرت ست شمعات أشعلها ووضعها فوق المائدة وقال :

« لعل مولاي يتفضل بتذوق نوع من خمر بورجندي فعندى قنينة . . . »
فقال السيد باسطاً أصابعه :
« الشموع »
قال الرجل :

« أمرك يا مولاي . . . في الحال سأطير بها إلى مولاي ... »

وجاء الرجل باثنتي عشرة شمعة أخرى أشعلها فأضيئت الغرفة . وكان جسم المركزيز الضخم قد غطى الكرسي الذي يجلس عليه ، وكان يرتدى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ملابس رقيقة سوداء فيما عدا الزركشة البيضاء حول معصميه وعنقه . وحتى قبضة سيفه وغمده كانا أسودين . وكانت ملامح وجهه تتم عن كبرياء ساخرة . وكانت سبلاله المعقوصان إلى أعلى يكادان يلامسان عينيه المازنتين وجلست السيدة جامدة لا تتحرك ، وقد لاحظ داود على ضوء الشموع أنها صبية وأنما ذات جمال محزون جذاب . وقد قطع عليه تأمله في حسنها صوت المركزيز القوي وقد صاح به :

« ما اسمك وما صناعتك ؟ »

« اسمي داود ميجنون ، وأنا شاعر »

الأخبار خارج الأبواب . فكفى طرقاً على بابي وانصرفوا »

فصاح الخادم في صوت يقرب من الصراخ :
« افتح . . . افتح للسيد المركزيز دى بويرتيز »
فصاح الرجل المثل من النافذة :
« آه . عفواً ألف مرة يا مولاي . إنى لم أستطع معرفتكم . الساعة متأخرة - سيفتح الباب في الحال وسيكون البيت رهن أمر مولاي »

وسمع من الداخل رنين سلسلة من الحديد وصوت محرك المزلاج وفتح الباب على مصراعيه ، ووقف صاحب بيت القنينة الفضية على عتبة الباب متفضلاً من البرد والخوف ، يحمل شمعة في يده وهو نصف عار .

وخرج داود من العربة وراء المركزيز الذي أتى إليه بهذا الأمر :

« ساعد السيدة في النزول »

فأطاع الشاعر الأمر وأحس بيد السيدة ترتجف وهي تهبط السلم . ثم دوى في أذنيه صوت المركزيز ملقياً إليه بهذا الأمر الجديد :
« ادخل البيت »

وكانت الغرفة التي دخلوها غرفة مائدة الفندق المستطيلة . وقد وضعت في وسطها مائدة كبيرة من خشب البلوط . جلس السيد الكبير الهامة على كرسي عند أدنى طرفها إليه ، وجلست السيدة على كرسي بجوار الجدار ، وقد بدا عليها أثر الضجر الشديد . ووقف داود يفكر في أصلح الطرق للاستئذان في الانصراف والانطلاق في طريقه

وقال صاحب الدار وقد انحنى حتى كاد جبينه

يلمس الأرض :

فأزداد سبالا المركز دنوآ من عينيه وقال :
« وكيف تعيش ؟ »

فارتفع رأس داود وعلا الاحمرار وجنتيه وقال :
« وإنى أعمل راعياً أيضاً ؟ أرعى قطيع أبى »
« إذن اصنع أيها السيد الراعى الشاعر إلى
الحظ الذى عثرت به الليلة . هذه السيدة هى ابنة
أخى الأنسة لوسى دى ثارين . وهى من سلالة نبيلة
وتملك دخلا سنويا قدره عشرة آلاف فرنك لاشريك
لها فيه . أما محاسنها فيمكنك أن تقدرها بنفسك ،
فاذا وقعت نتيجة الفحص من قلب الراعى موقعا
حسنا فانها تسمى زوجك بكلمة واحدة . لا تقاطعنى ؛
لقد ذهبت بها الليلة إلى قصر الكونت دى فيلمور ،
وكان موعوداً بالزواج منها . وقد استكمل عدد
المدعويين ، وجلس القسيس ينتظر عقد زواجها على
الرجل الذى يماثلها نسباً وثروة ، ووقف العروسان
أمام المذبح ، ولكن هذه الفتاة التى تراها هنا وديعة
مطبعة ، قد التفتت إلى ، وقد انقلبت لبؤة ، فأنهمتنى
بالقسوة وارتكاب الجرائم ، وفسخت أمام الراهب
المنذهل العهد الذى قطعته عنها . عندئذ أقسمت وأنا
في موقفى بعشرة آلاف شيطان أن أزوجها من
أول رجل نصادفه في طريقنا بعد مغادرة القصر
سواء أكان هذا الرجل أميراً أم موقد حطب أم
لصاً . وانت أيها الراعى أول من صادفنا في الطريق ؛
وهذه الفتاة لا بد أن تزوج الليلة إن لم يكن منك
فرن سواك . وأنى أمهلك عشر دقائق للتفكير
والاختيار ، فلا تضايقنى بالكلمات والأسئلة . عشر
دقائق أيها الراعى ، والدقائق تمضى سريعا »
نقر المركز بأصابعه البيضاء نقرأ قويا على
المائدة . ثم جلس ينتظر في صمت يحيطه النموض .

وكأنما هو بيت هائل قد أغلق جميع أبوابه ونوافذه
في وجه القادمين . وكان من أمانى داود أن يتكلم
ولكن منظر الرجل الهائل قد عقد لسانه . فوقف
إلى جانب كرسى السيدة وأنحنى وقال — وقد عجب
في نفسه من انطلاق لسانه في سهولة أمام مثل ما تحلت
به الحسنة الغريبة من عظمة وجمال :

« أيها الأنسة . لقد سمعتنى أقول إننى راع .
كذلك يلقي في روعى أحيانا أننى شاعر . وإذا كان
من نزعات الشاعر أن يعبد الجمال ويحبه فان هذه
الزعة قد قويت الآن في نفسى . فهل في مقدورى
أن أقدم اليك ياسيدتى خدمة ما في أية ناحية من
النواحي ؟ »

فنظرت الفتاة إليه بعينين جافتين محزنتين .
ولكن مارأت على وجهه من أمارات الصراحة
والاشراق ، ومظهر الجدل الذى نشأ عن خطر المغامرة
التي واجهها ، وما تمثل لها من قوة جسمه واستقامته
وما لحظت في عينيه من شفقة متدققة ، ولكن ذلك
كله وقد تضاف إليه أيضاً حاجتها الملحة إلى المساعدة
والشفقة اللتين حرمتها منذ زمان طويل ، قد بعث
إلى عينيه بالدموع المفاجئة ...

وقالت الفتاة في لهجة خافتة :

« سيدى ، إنه ليبدو عليك أنك صادق شقيق ؛
وهذا الرجل هو عمى شقيق أبى ، وقربنى الوحيد
في الحياة . ولقد أحب أُمى فهو يفضنى لأننى
أشابهها . ولقد أحال حياتى إلى فزع طويل . وإنى
لأخاف مجرد نظراته ، ولم أجرو قط من قبل على
مخالفة أوامره . ولكنه الليلة كان على وشك أن
يزوجنى من رجل تبلغ سنة ثلاثة أمثال سنى ؛ ولعلك
تساعحنى إذ أبعث إلى نفسك الغضب بمثل هذا
(٥)

قتسرت يدها الرقيقة الصغيرة من تحت معطفها
حتى أمسكت بيده وقالت متهددة :
« سأثقب بك وأضع حياتي بين يديك . و ...
والحب - قد لا يكون بعيداً كما تظن . فأجبه .
ومتى بعدت عن قوة عينيه فقد أنسى »

فمشى داود حتى وقف في وجه المركز . فتحرك
الهيكل الضخم ، ونظرت عيناه الساخرتان الى
الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار وقال :
« لم يبق غير دقيقتين . أحتاج الراعي لثاني
دقائق ليقرر اذا كان يقبل أو لا يقبل الزواج من
عروس ذات جمال وثروة ؟ تكلم أيها الراعي ،
أتوافق على أن تسمي زوج الأنسة ؟ »

فبدت الكبرياء على داود وقال :
« لقد شرفنتي الآنسة بأن قبلت رجائي في أن
تسمي زوجي »
فقال المركز :

« لقد أحسنت التعبير . وان في نفسك أيها
السيد الراعي لروح النديم . وكان من الجائز أن
تقع الآنسة في شر من هذه النتيجة . والآن لنته
من هذا الأمر بأسرع ما تسمح به الكنيسة
والشيطان »

وضرب المركز المائدة بقبضة سيفه ضربة
شديدة ، فأقبل رب الدار مضطرب المفاصل حاملاً
شموعاً جديدة متوقفاً سلفاً ما يأمر به المركز ،
ولكن المركز فاجأه بقوله :

« أحضر لنا قسيساً .. قسيساً أفهمت ؟ في
عشر دقائق يجب أن تحضر القسيس الى هنا وإلا ... »
فألقى الرجل بالشموع وجرى
وجاء القسيس مثقل الجفون من أثر النوم

الكلام وأحسبك سترفض ، دون ريب ، ذلك الأمر
الجنوني الذي يحاول أن يفرضه عليك قسراً . ولكن
اسمح لي أن أشكر لك على الأقل ، ما وجهت إلى من
كلمات كريهة ، فاني لم أسمع منذ زمان طويل أحداً
يخاطبني بمثل هذه الكلمات »

وهنا نظقت عين الشاعر بشيء أكثر من
الكرم . وما من شك في أنه كان شاعراً ، فقد
نسى إيفون ، وقد تملكته هذه الحسناء الجديدة
بما وهبها الله من عظمة ونضارة ، وقد أثار الشذا
الجميل المنبعث منها عواطف غربية في نفسه . فنظر
إليها نظرة رقيقة أغضت لها متعطشة لما فيها من حنان
وقال داود :

« لقد منحت عشر دقائق للبت فيما كنت
أجعل للبت فيه عدة من السنين . ولا أقول إنني
أشفق عليك أيها الآنسة ، لأنني لو قلت ذلك لما
كنت صادقاً - فاني أحبك . وما أستطيع بعد أن
أطلب منك مقابلة الحب بالحب ، ولكن اسمحي لي
بأن أتفذك من هذا الرجل القاسي ، وسيجيء الحب
مع الزمن ؛ وإني لأظن أن لي مستقبلاً ، فلن أكون
راعياً طوال عمري . وسأحيطك في الوقت الحاضر
بكل ما في قلبي من القوى لأخفف من أحزانك
الموجعة ، فهل تودعين حظك آمنة بين يدي
ياسيدي ؟ »

« آه ! ستضحى بنفسك شفقة على ! »
« لا ، ولكني أتقدم إليك باسم الحب ، والزمن
كفيل في الغالب بكل شيء يا آنسة »
« إنك ستندم على ذلك وستحتقرني وتردربي »
« سأقف حياتي على إسماعلك وعلى رفع نفسي
إلى المستوى اللائق بك »

« لقد شرفتنى فى هذه اللحظة بأن دعوتنى
« السيد » هل آمل إذن أن يكون زواجى من
الآنسة قد رفعنى إلى مكانة تدنو قليلا من مكانتك ؟
ولتكن مكانة الظل من الأصل - فيسمح لى ذلك
بأن أقف موقف الند من السيد المركيز فى شأن
صغير معين أحمله فى رأسى ؟ »

فقال المركيز ساخرآ :

« قد تأمل فى ذلك أيها الراعى »

فألقى الفتى بكأسه بين عيني المركيز الساخرتين
اللتين تهزآن به وقال :

« اذن ، قد تتنازل فتبارزنى »

فتجلت ثورة السيد العظيم فى ائمة مفاجئة
انفجرت من بين شفثيه كنفخة البوق الكبير .
وجرد الرجل سيفه من غمده وصاح برب البيت
المضطرب :

« جىء هذا الجلف بسيف ! »

ثم التفت إلى السيدة ضاحكا ضحكة أرجفت
قلبها وقال :

« انك تحملىننى كثيرا من المتاعب أيتها
السيدة ؛ ويلوح لى أنه لابد من أن أزوجك وأرملك
فى ليلة واحدة »

فقال داود وقد احمر وجهه لاضطراره الى هذا
الاعتراف أمام زوجه :

« أنا لا أعرف استعمال السيف »

فقال المركيز فى لهجة الساخر :

« أنا لا أعرف استعمال السيف ! أتبارز اذن
كالقلاحين بهراوات البلوط ؟ مرحى ! أحضر
يافرانسوا غدارتى ! »

فأسرع أحد الخدم وأحضر من العربية غدارتين

مترنحا ، فأجرى الطقوس التى أمسى بها داود
ميجنوت ولومى دى فارين زوجين ؛ ثم دس فى
جيبه قطعة من النقود الذهبية ألقى بها المركيز اليه ،
وغادر البيت من حيث جاء دالفاً فى الظلام
فبسط المركيز أصابعه الكبيرة فى وجه رب الدار
وصاح به :

« هات خمرآ »

فلما جاءه بالخمر قال :

« املا الكؤوس »

ووقف على رأس المائدة فى ضوء الشموع ،
فكان أشبه بجبل أسود من الضفينة والغرور .
وعند ما وقع نظره على ابنة أخيه بدا فى عينيه شئ
كذكرى الحب القديم وقد انقلب سما قاتلاً . .
ورفع كأسه فى يده وقال :

« مسيو ميجنوت ! اشرب بعد أن أقول لك

هذه الكلمات : لقد تزوجت من فتاة ستملا حياتك
غشا وتعاسة ، فالدم الذى يجرى فى عروقها هو
سيل موروث من الأكاذيب السود والدمار
الأحمر . فستجلب لك العار والهواجس . فالشيطان
الذى انحدر إليها بالوراثة كامن هناك فى عينيها
وجلدها وفها الذى ينزل حتى لخداع رجل فلاح .
هذا هو ما وعدت به أيتها السيد الشاعر من الحياة
السعيدة . اشرب خمر . وأنت أيتها الفتاة لقد
تخلصت منك آخر الأمر »

وشرب المركيز كأسه ؛ وخرجت من بين شفثى
الفتاة صرخة محزونة كأنها منبعثة من جرح مفاجئ ،
فتقدم داود وكأسه فى يده ثلاث خطوات ثم
وقف من المركيز وجهاً لوجه . فلم يكن فى منظره
ما يشبه منظر الرعاة ، وقال فى هدوء :

المركز بآسماً وقد استندت أصابع يده اليسرى إلى المائدة . وبقي داود منتصباً في مكانه ؛ ثم أدار رأسه في بطاء شديد باحثاً بعينه عن زوجه ، ثم إذا هو يسقط فجأة كتلة جامدة كما يسقط المعطف عن الشجب .

فجرت العروس الأرملة ، وقد صرخت صرخة الجزع واليأس ، فأنحنت على جثة زوجها القليل ، وعثرت على جرحه ، ثم نظرت نظرتها القديمة الجامدة من الحزن الموجع وقالت هامسة :

« في صميم قلبه ، أواه ! في قلبه ؟ »

فدوى صوت المركز المرعب في أرجاء الغرفة :

« تعالى لنذهب إلى العربية ! ولن يراك الفجر بين يدي ، فستزوجين مرة أخرى ، في هذه الليلة ومن زوج حي . وسيكون هذا الزوج أول رجل نصادفه في الطريق ، عظيمًا كان ذلك الرجل أم فلاحاً حقيراً . فإذا لم نصادف في الطريق أحداً فستزوجين من البواب الذي يفتح أبواب قصرى . هلمي إلى العربية ! »

خرج المركز الضخم الجثة المتحجر الضمير ، تتبعه السيدة ملتفة في معطفها الذي يحيطها بالأسرار ، وحوّلها الخدم يحملون السلاح - خرجوا جميعاً إلى العربية الواقعة في الانتظار ، فلم يلبث دوي عجلاتها الكبيرة أن تردد صدها في أرجاء القرية الناعمة ؛ بينما صاحب بيت « الفنية الفضية » منحن فوق جثة الشاعر القليل شارد الفكر يدق يدأ بيد ، ولهب الأربع والعشرين شمعة المضاء فوق المائدة يرقص متأججاً في الهواء

كبيرتين لامعتين قد زينت أيديهما بالفضة النقوشة . فألقى المركز إحداها فوق المائدة على مقربة من يد داود وصاح به :

« الى الطرف الآخر من المائدة . وحتى الراعى قد يستطيع أن يطلق الفدارة . وقليل منهم هم الذين ينعمون بشرف الموت بسلاح دي بوبرتيز »

وتواجه المركز وداود من طرفي المائدة . وأصاب الجزع رب الدار فأخذ يحبط الهواء بيديه ويقول مترنحاً :

« سيدى . . . سيدى ، بحق المسيح لا تفعل ذلك في بيتي ! لا ترق الدماء هنا - فيدمر ذلك سمعتي ويقضي على مستقبلى . . »

ولكن نظرة المركز التهديدية اليه عقلت لسانه ، وقد صاح به الرجل :

« كفى ثرثرة أيها الجبان ، وهيء لسانك الطويل ليعلم كلمة القتال »

ولكن ركبتى رب الدار كانتا قد لامستا الأرض ، وقد ذهبل عن كل شيء فهو لا يكاد يسمع أو يبى ولكنه كان مع ذلك لا يزال يستجدى السلام باسم سمعة بيته والحرص على عمله .

وقالت السيدة في صوت جلى :

« سأعطى أنا الكلمة »

ثم تقدمت إلى داود فقبلته قبله رقيقة . وكانت عيناها تبرقان وقد علا الاحمرار وجنتيها . ووقفت بجوار الجدار وصوب الرجلان غدارتيهما أحدهما إلى الآخر منتظرين أمرها باطلاق النار :

« واحد . اثنان . ثلاثة ! »

وخرج الطلقان في وقت واحد على التقريب فلم يضطرب لهب الشموع غير مرة واحدة ووقف

طريق المين

قطع الفتى ثلاثة فراسخ في خط مستقيم ، ثم وقف متحيراً ، فقد التقت الطريق بطريق أخرى أوسع منها ترسم معها زاوية قائمة ، فبقي لحظة لا يستقر على رأى ، ثم سلك طريق المين

لم يكن داود يدرى إلى أين تقوده هذه الطريق ولكنه كان قد اعتزم أن يعتمد الليلة عن فرنوى ما استطاع . وبعد أن قطع فرسخاً في الطريق الجديدة مر بقصر يدل الطواهر على أنه عمر باحتفال حديث ، فقد كانت الأنوار بادية من جميع نوافذه ، وكانت آثار عجلات العربات التي حملت الضيوف واضحة ممتدة من داخل الباب الكبير إلى طول الطريق

وبعد ثلاثة فراسخ أخرى أحس داود بالتعب ، فجلس يستريح ثم رقد على كومة من الأعشاب إلى جانب الطريق . واستيقظ بعد فترة فواصل السير إلى حيث لا يدرى .

وعلى هذه الصورة قضى الفتى خمسة أيام ماشياً في هذه الطريق الواسعة الطويلة ، ينام على فراش الطبيعة فوق ركام الفلاحين ، آكلاً من خبزهم الأسود السخى ، شارباً من الجرادل أو أكواب الرعاة الكرماء .

وأخيراً عبر جسراً كبيراً فوضع قدمه على أرض المدينة الباسمة التي حطمت أو توجت من الشعراء عدداً يزيد على مجموعة الشعراء في أى مكان آخر . وجري تنفسه سريعاً عندما ما غنت له باريس في صوت خافت أغنية الترحيب — وهي أغنية عناصرها مهمة الأصوات ووقع الأقدام ودوي العجلات .

واستقر الفتى في غرفة صغيرة فوق سطح منزل قديم بإشباع كونتى ، فدفع أجر الإقامة ، وجلس

على كرسى من الخشب منكبا على أشعاره ، وكان الشارع الذى يقيم فيه من الشوارع التى هجرها أهل الجد والعمل ، فأصبحت مسرحاً للذين يسرحون في فترة الانحدار .

وكانت البيوت عالية ، يبدو عليها أثر العظمة الزائلة ، وكان أغلبها خالياً إلا من الأتربة والعنكبوت ، ولم يكن يسمع في الليل غير جلجلة الحديد وصراخ المشاغبيين المتنقلين من حانة إلى حانة ؛ وفي الجملة أصبح ذلك الحى الذى كان مسرح السادة الأشراف مأوى للرعاع المجرمين ، ولكن داود وجد في هذا الحى السكن المناسب لله القليل ، ولم يره نور النهار ولا ضوء الشموع إلا منكباً على الأقلام والورق .

وفي ذات مساء كان داود عائداً من جولة في الأحياء الفقيرة حاملاً شيئاً من الخبز والأدام وزجاجة من النبيذ الخفيف ، وفي منتصف درجات السلم التقى — أو بمباراة أخرى وقع على — سيدة فتية ذات جمال يعطل حتى خيال الشعراء . ترتدى معطفاً أسود خفيفاً ينفرج عن ملابس غالية ثم عن الثراء ، وكانت عيناها تتغيران في سرعة مذهشة وفاق ما يدور في رأسها من آراء . ففي لحظة تراهما مستديرتين لا أثر للصناعة فيها كأنما هما عينا طفل برى ، وفي لحظة أخرى تراهما مستطيلتين خداعتين كعيون نساء العنجر ، وقد رفعت إحدى يديها طرف ثوبها كاشفة عن خذاء على الكعب محلول الرباط ، وهي في وقفها مخلوقة سماوية غير خليقة بالأنحاء ، فهي إنما خلقت لتسحر الناس ولتأمر فتطاع ! ولعلها قد رأت داود يصعد الدرجات فانتظرت ليقدم إليها ما تود من مساعدة .

آه ، أنفجر لها السيد وقوفها في الطريق ، ولكن

في الغرفة الصغيرة التي يميل السلم أمامها .
فادارت السيدة رأسها ناحية وقالت :
« في الغرفة الأمامية ؟ »

« في الخلفية يا سيدتي »

فتنهت السيدة كأنما قد شعرت بشيء من
الارتياح . وقالت وقد استدارت عيناها وضاع منهما
كل أثر للصناعة :

« لن أؤخرك أكثر من ذلك يا سيدى . وعليك
أن تحافظ علي منزلى . أسفا ! إن ذكرياته هي كل
ما أملك منه الآن . وداعا وتقبل شكري لما قدمت
لي من مساعدة »

واختفت السيدة عن نظر الفتى غير تاركة وراءها
إلا ابتسامة والاشدا حلوا منعشا . وتسلى داود
السلم تسلى النائم يسير في المنام ، ولكنه لم يلبث
أن استيقظ ، ولازمته الابتسامة والشذا ولم يبد أن
أحدهما قد فارقه بعد ذلك أبداً ، فقد أحاطته هذه
السيدة بكل ما يحيط به الملاك الساحر الشاعر الرقيق
الحسن من مغريات .

وما من شك في أنه كان شاعراً ، فقد نسي
إيفون ، وقد تملكته هذه الحسناء الجديدة بما
وهبتها الطبيعة من عظمة ونضارة . وذلك الشذا
الجميل الذي انبعث منها بعث عواطف غريبة في نفسه

وفي ليلة ما اجتمع ثلاثة أشخاص حول مائدة
في غرفة بالطابق الثالث من هذا البيت نفسه . ولم
يكن في الغرفة من أثاث غير الثلاثة الكراسي
والمائدة والشمعة المضيئة فوقها . وكان أحد
الأشخاص رجلاً ضخماً الهامة يرتدى السواد ، تدل
تقاسيم وجهه على ما في نفسه من كبرياء ساخرة ،

الحذاء ! — ذلك الحذاء الشقي الماكر ! أسفا ! إنه
لا يبقى على ربطته . آه ! لو أن السيد تفضل بتقديم
مساعدته الكريمة !

وارتجفت أصابع الشاعر وهو يمسك الرباط . ثم
لكأته حاول الهرب الذي يواجهه في حضرتها ،
ولكن عينيها قد استطالتا خدعتين كميون الفجر
فشلتا حركته . فمال على حاجز السلم ممسكاً بزجاجة
الخمر الردى .

وقالت السيدة مبتسمة :

« لقد كنت كريماً يا سيدى ، فلملك من سكان
هذا البيت . »

« نعم يا سيدتى . . أنا — أنا اضنني كذلك . »

« لملك إذن تسكن الطابق الثالث ؟ »

« لا ، يا سيدتى ، بل أعلى من ذلك . »

فخركت السيدة أصابعها حركة تدل على شيء من
الضجر وقالت :

« عفواً فما أنا طفيلية في سؤالى ، وإنى لأرجو
السيد أن يسامحني ، فما أقصد حقاً أن أعرف أين
يسكن . »

« لا تقولى ذلك يا سيدتى ، فإننى أسكن في .. »

« لا ، لا ، لا ، لا ، لا تقل لى ، فاني مدركة الآن

أننى قد أخطأت ، ولكننى لا أستطيع أن اتغلب
على اهتمامى بأمر هذا المنزل وكل ما يتصل به ، فلقد
كان بيتى يوماً ما . وإنى لأحضر إلى هنا في أغلب
الأوقات ، ولكن لجرد التمتع باستعادة ذكريات
تلك الأيام السعيدة . فهل تقبل منى هذا العذر ؟ »
فقال الفتى مترنحاً :

« لتصنى إلى إذن ، فما بك من حاجة للاعتذار ،

انى لأسكن في الطابق الأخير فوق سطح الدار —

فصرب الكابتن دزروول على المائدة مرة أخرى
وقال مكرراً كلماته الأولى :

« الليلة . . لقد سمعتنى ، ياسيدى الركيز ، أقول
إن يدى ستضرب الليلة الضربة الواجبة »

فقال الرجل الضخم الجثة في شيء من الرقة :
« ولكن الآن يعرض لنا هذه المسألة : يجب
أن نرسل كلمة لأصدقائنا فى القصر الملكى ، وهناك
إشارة متفق عليها . ويجب أن يصحب رجالنا المحلصون
عربة الملك . فمن هو الرسول الذى يستطيع فى هذه
الساعة أن يتوغل حتى الباب القبلى ؟ فركز
ريوت عند ذلك الباب ، فتمتى وصلت الرسالة الى يده
فسيتم كل شيء على ما نحب »

فعالت السيدة :

« سأبولى أنا إبلاغ الرسالة »

فرفع الركيز حاجبيه وقال :

« أنت يا كوتنس ؟ إتنا نعرف أن اخلاصك
عظيم ولكن . . . »

فوقفت السيدة واتكأت بيدها على المائدة وقالت :
« أصغ الى ، فى غرفة بأعلى هذا المنزل مسكن
شاب من الريف مخلص وديع كالخراف التى يرعاها
هناك ، ولقد قابلته على السلم مرتين أو ثلاثا .
وسألته عن مسكنه خيفة أن يكون قريباً من الغرفة
التي تجتمع فيها ، وإنه لطوع يدي إن أردت ، فهو
يكتب الشعر فى غرفته وأظن أنه يحلم بى . وسيفعل
ما أطلب منه فعله ، وسيحمل الرسالة إلى القصر »
فوقف الركيز وانحنى ثم قال :

« إنك لم تسمحنى لى يا كوتنس بأن أتمم جلتي
فلقد كنت أريد أن أقول ان اخلاصك عظيم
ولكن ذكائك وحسنك لاحد لعظمتها »

وكان سبالاه المقتولان الى أعلى يكادان يلامسان
عينيه الهازئتين . وكان الشخص الثانى سيدة صبية
جميلة ، ذات عينين تراهما حيناً مستديرتين لا أثر
للتصنع فيهما كأنهما عينا طفل برى ، و تراهما مرة
مستطيلتين خداعتين كميون الفجر ولكنهما كانا
ساعة هذا الاجتماع حادثين تنطقان بما فى نفسها من
مطامع كميون غيرها من المتآمرين ؛ أما الشخص
الثالث فكان رجل عمل ، وكان محارباً شجاعاً صبوراً
فملاً يستنشق أنفاسه خلال النار والحديد ، وكان
صاحبه يدعو انه الكابتن دزروول .

ضرب هذا الرجل المائدة بيده وقال فى صوت
ثابت قوى :

« الليلة . . الليلة حين يذهب لصلاة نصف الليل .
لقد تعبت من التآمر الذى لا يؤدى إلى نتيجة . وانى
لأختنق من الاشارات والرموز والاجتماعات السرية
ومثل هذه المهمة التى نتحدث بها . فلنكن خونة
أشرافاً ، فإذا كان لابد لفرنسا أن تتخلص منه
فلنضرب ضربتنا علناً ، غير مخادعين ولا ملتجئين
للجبال والاشراك . فالليلة كما قلت . وكما اكرر القول ،
الليلة ستضرب يدي هذه الضربة الواجبة ، الليلة
عند ما يذهب لصلاة نصف الليل »

فنظرت اليه السيدة نظرة تقدير و إعجاب . والمرأة
وان انغمرت فى المؤامرات لا تزال أبدا تنحنى أمام
مثل هذه الشجاعة المندفعة . وبرم الرجل الضخم
شاربيه وقال فى صوت غليظ يلطفه بحكم العادة :

« إنى متفق معك فى هذه المرة ، أيها الكابتن
العزير ، فليس هناك ما نجنه من وراء الانتظار ،
فبين حرس القصر من أصدقائنا العدد الكافى لضمان
نجاح مشروعنا »

فستمكن والدتي من رؤيته قبل أن تغمض عينها
إلى الأبد »

فقال داود متحمساً :

« هات الكتاب ياسيدي ، ولكن هل أتركك
تعودين وحدك في الشوارع في هذه الساعة
التأخرة ؟ أنا ... »

فقالت السيدة وقد استطلت عينها وبدأت
خدعتين كميون النجر :

« لا . لا - أسرع أنت ، فكل لحظة تمر
كأنها جوهرة نفيسة ؛ وسيأتي الوقت الذي أحاول
فيه أن أشكر لك طيبتك »

فدس الشاعر الخطاب في صدره وأجه إلى السلم
فهبطه مسرعاً . فلما انصرف عادت السيدة إلى غرفة
النائم .

فكانت حركة حاجبي الركيز ثم عن سؤالها
عما حدث فأجابت :

« لقد ذهب بالكتاب أبه غيباً كما حدى الغم
التي يراها »

فاهتزت المائدة مرة أخرى باحدى ضربات
الكابتن دزول وصاح :

« يا لله ! لقد نسيت غدارتي ، ولا أستطيع أن
أثق بغيرها »

فسحب الركيز من تحت معطفه غدارة كبيرة
لامعة مزينة قبضتها بالفضة المنقوشة وقال :

« خذ هذه فها هناك من غدارة آمن منها ،
ولكن حافظ عليها جيداً فإنها تحمل اسمي وشعاري ،
وأنا بالفعل مشتبه في أمري . وفيما يختص بي سأبتمد
الليلة عدة فراسخ عن باريس . وسيشرق على صباح
الغد في قصرى ، تفضلي ياسيدي الكونتس »

وبينما كان التآمرون مشغولين بهذا الحديث
في غرفتهم كان داود يهذب بعض أبيات من الشعر
وجهها إلى « حسناء السلم » ولم يلبث أن سمع
طرقاً خفيفاً على باب غرفته ، وما كاد يفتحه حتى
اضطرب قلبه إذ رأى الحسناء الذى يتغنى بها واقفة
على عتبة تلهث مفتوحة المينين بريئة النظرات
كالطفل ، وكأنها هي في ضيق شديد وما رآته حتى
قالت في صوت متقطع :

« سيدى ، إني أجيئك الآن جازعة ، وإني
لأعتقد أنك طيب صادق ولا أعرف سواك من
ألجأ إليه للمساعدة . ولو رأيتنى وأنا أجري في
الشوارع وسط الرجال المختالين بأنفسهم ! ولكن
دفعنى إلى ذلك ياسيدي أن أمى في حالة النزاع ؛
وخالى ضابط فى حرس الملك ؛ ولا بد من أن
يسرع إليه أحد فيأتى لى به . وإني لأرجو »

وهنا وضعت السيدة فى يد الفتى رسالة مختومة
ومضت تقول :

« اذهب إلى الباب القبلى - الباب القبلى
لأننى ذلك - وقل للحرس الذين تجدهم هناك :
« لقد غادر البازى وكره » وعندئذ يسمحون لك
بالمرور ، فاقصد إلى مدخل القصر القبلى وكرر
الجملة نفسها ، وسلم هذا الخطاب للرجل الذى يجيئك
بقوله : « دعه يضرب متى أراد » فهذه كلمة المرور
التي أطلعني عليها عمى ياسيدي ، لأنه فى وسط
الاضطراب الحاضر فى البلاد ، وبينما يوجد قوم
يتآمرون على حياة الملك لا يستطيع أحد بدون
هذه الكلمة أن يدخل إلى القصر بعد هبوط
الظلام ؛ فإذا أنت حملت إليه هذا الخطاب ياسيدي

مائلة للسواد وقد انحنى إلى الأمام . وقال يخاطب ذلك الرجل :

« لقد رفعت إلى مسامعك يا مولاي أن القصر يموج بالخونة والمتآمرين كما تموج السرايب بالفيران . ولقد كنت تظن يا مولاي أن ما أقول ليس إلا من نسيج خيالي . وهذا الرجل استطاع الوصول إلى أبواب حجراتك بإغضاء الحراس ، وكان يحمل خطاباً أخذته منه . وهأنذا قد جئت به إلى حضرة جلالتك حتى لا تظن غيري مبالغاً فيها فأجفل الملك في كرسيه ونظر إلى داود بعينين أثقلتهما غشاوة معتمة وقال :

« سأسأله بنفسى »

فتنى الشاعر ركبته . وسأله الملك :

« من أين جئت ؟ »

« من قرية فيرنوى فى مقاطعة إرياه لوار يا مولاي »

« وماذا تعمل فى باريس ؟ »

« أو .. أود أن أكون شاعراً »

« وماذا كنت تعمل فى فيرنوى ؟ »

« كنت أرى أغنام أبى »

فأجفل مرة أخرى وانزاحت الغشاوة عن عينيه وقال :

« آه - فى الحقول ! »

« نعم ، يا مولاي »

« كنت تعيش فى الحقول وتخرج فى نسيم الصباح الطرى فترقد على الحشائش داخل السياج . وهناك ينتشر القطيع على جانب التل . وتشرب أنت من ماء النهر المنعش ، وتأكل خبزك الأسود اللذيذ فى الظل ، وتصنى دون شك للطيور السوداء وهى

(٦)

ونفخ المركيز الشمعة فأطفأها ، ولفت السيدة نفسها جيداً بمعطفها وهبط الثلاثة السلم فى هدوء ، ولم يلبثوا أن اندسوا بين المارة على إفريز شارع كونتى وأسرع داود حتى وصل إلى الباب القبلى لقصر الملك . وهناك صوب أحد الحرس حربته إلى صدره ، ولكنه لم يلبث أن حولها عنه بهذه الكلمات :

« لقد غادر البارزى وكره »

فقال الحارس :

« مر يا أخى ، وأسرع »

وعند الدرج الجنوبى للقصر تحرك الحرس للقبض عليه ، ولكن كلمة المرور لم تلبث أن فتحت له الطريق . وتقدم أحد الحرس منه وقال : « دعه يضرب . . . » ولكن حركة عنيفة وسط الحرس أنهأت عن أمر مفاجئ ، فقد شق الطريق فجأة وسط الحراس رجل حاد النظر عليه سياء الجندي وأمسك بالخطاب الذى كان داود يحمله فى يده ، وقال له :

« تعال معى »

ودخل به إلى الردهة الكبرى ، وهناك فض غلاف الخطاب وقرأه . ثم أشار إلى رجل فى ملابس الفرسان اتفق مرورهم فى هذه اللحظة ، وقال :

« كابتن تيترو . . . أسرع بالقبض على حرس

المدخل الجنوبى وأودعهم السجن ، وضع مكانهم رجالاً ممن لا شك فى ولائهم »

ثم وجه الحديث إلى داود فقال :

« وأنت تعال معى »

ثم قاده فى ممر وصل منه إلى غرفة صغيرة تؤدى إلى حجرة فسيحة حيث جلس فى كرسي كبير من الجلد رجل تبدو عليه أمارات الحزن يرتدى ملابس

تغنى بين الأحرار . أليس ذلك هو شأن الراعى ؟
فأجاب داود متنهداً :

« هو ذاك يا مولاي ، وكذلك يصنى إلى النحل
فوق الأزهار ، وقد يصنى كذلك إلى جناة الغنب
وهم يغنون »

« نعم ، نعم ، قد يصنى إلى جناة الغنب ولكن
الذى لا شك فيه أنه يصنى للطيور السوداء ، فهي
غالباً ما تغنى في الأحرار ، أليس أمرها كذلك ؟ »
« إنها لا تغنى في مكان آخر بأحلى مما تغنى في
إيرابه لوار . ولقد حاولت أن أصف غناءها في بعض
الأشعار التي أنشأتها »

فسأله الملك في لهفة شديدة :

« أأستطيع أن تكرر على سمى هذه الأبيات ؟
فبذل زمان بعيد أصغيت للطيور السوداء . وإياه لأكبر
من انك أن يستطيع إنسان تصوير غنائها تصويراً
صادقاً ... وكنت في المساء تدفع الأغنام إلى حظيرتها
ثم تجلس في هدوء واطمئنان ، فتأكل خبزك الهنيء !
هل تستطيع أن تكرر هذه الأبيات أيها الراعى ؟ »
فقال داود في حماسة ملؤها الاحترام :

هذه هي يا مولاي :

« أيها الراعى الكسول ! انظر خرافك الصغيرة

« وهي تثب مرحة فوق الأعشاب

« وانظر إلى فرائها تهتر في النسيم

« واصغ إلى إله الرعاة ينفخ في أرغوله

« فيترجم أقوال الطيور وهي تقول :

« اصغ إلينا ونحن نصيح فوق الغصون ،

« وانظر إلينا ونحن ننقض على أغنامك

« لنلقط منها الأصواف التي تدق أوكارنا

« على فروع ال . . . »

هنا قطع هذا الحديث صوت أجش يقول :

« أأأذن لي مولاي أن أسأل هذا الوزان سؤالاً
أو سؤالين . فليس لدينا من وقت نضيمه قبل أن
نعمل . وإني لأسأل مولاي العفو إذا كان اهتمامي
بسلامة جلالتك قد أدّى إلى هذه المقاطعة التي قد
تسوءكم »

فقال الملك :

« إن اخلاص الدوق دومول أكبر من أن
يسبب لي أي امتعاض أو غضب »
ثم غاص الملك في كرسیه وعادت العشاة
فاستولت على عينيّه . فقال الدوق :

« وسأبدأ بأن أقرأ لجلالتكم الخطاب الذي حمّله
هذا الفتى وهذا هو :

« الليلة هي ليلة ذكرى وفاة ولي العهد . فإذا
خرج كمادته لحضور صلاة نصف الليل على روح
ابنه ، فإن البازي سيضرب ضربته عند زاوية شارع
اسبلاناد ، فإذا كانت هذه هي نيته فضع نوراً أحمر
في الغرفة العليا في الركن الجنوبي الغربي من القصر
حتى يأخذ البازي أهبته »

ثم قال الدوق في شدة :

« أيها الفلاح ، لقد سمعت هذه الكلمات ، فمن
الذي أعطاك هذه الرسالة لا يصلها إلى القصر ؟ »
فقال داود في لهجة الجد :

« سأخبرك يا مولاي الدوق ، لقد أعطتني
هذه الرسالة سيدة قالت إن أمها مريضة وإن هذه
الرسالة تستدعي خالها ليقف إلى جانب فراش أخته
وهي تموت . ولم أكن أعرف ما يحتوي عليه

خطابها ، ولكنني أستطيع أن أقسم أنها جميلة
وطيبة »

فقال الدوق آمراً :

« صف لنا المرأة وقل كيف أصبحت رسولها
الأبله »

فقال داود مبتسماً ابتسامه رقيقة :

« أصفها ؟ انك بذلك تأمر الكلمات أن تأتي
بالمعجزات : أنها يامولاي مخلوقة من شعاع
الشمس تحيطها هالة رائعة ، هيفاء كشجرة الحور ،
إذا خطرت اكتنفها العظمة من كل ناحية ،
وعيناها تتغيران وهي تحدثك ، فهما في لحظة
مستدیرتان ، وفي لحظة أخرى نصف غامضتين كما
تطل عين الشمس من بين سحابتين . إذا جاءت
فالسما حولها ، وإذا ذهبت تركت وراءها شذاً
يسحر النفوس ، لقد جاءني في شارع كونتي رقم
٢٩ »

فالتفت الدوق إلى الملك وقال :

« إنه البيت الذي كنا نراقبه ، فشكراً للسان
الشاعر ، فقد رسم لنا صورة من الكونتس ليبدو
مفضوحة السمعة »

فقال داود في لهجة الجد :

« صاحب الجلالة ، ومولاي الدوق ، أرجو ألا
تكون كلمتي التعمية قد ظلمت أحداً . لقد نظرت
إلى عيني هذه السيدة ، وإني لأراهن بحياتي على أنها
ملاك دون نظر إلى أمر هذا الخطاب »

فأحرق الدوق فيه النظر وقال في هدوء :

« إنني سأختبرك ، فستلبس ملابس الملك ،
وتذهب بنفسك في عربته لحضور صلاة نصف

الليل ، فهل تقبل هذه التجربة ؟ »
فابتسم داود وقال :

« لقد نظرت إلى عينيها ، فبرهاني في يدي ،
ولك أن تجري تجربتك على ماتريد »

وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين
مساء وضع الدوق دومول بيده مصباحاً أحمر في نافذة
بالركن الجنوبي الغربي من القصر ، وفي الساعة
الحادية عشرة والدقيقة الأربعين خرج داود من
الحجرات الملكية مرتدياً ملابس الملك من قبة
رأسه لأخص قدمه متكئاً على ساعد الدوق حانياً
رأسه إلى الأمام حتى وصل إلى العربة المنتظرة أمام
السلم الخارجي ، فساعدته الدوق في دخولها وأقفل
الباب . فسارت العربة في طريقها إلى الكاتدرائية .
وفي نقطة (كي فيف) أمام بيت في زاوية شارع
اسبلاناد اختبأ كابتن تيترو مع عشرين من رجاله
مستعدين للانقضاض على المتأمرين عندما يظهرون

ولكن يظهر أنه لأمر ما عدل المتأمرين في
خطتهم تعديلاً طفيفاً . فها وصلت العربة الملكية
شارع كريستوفر ، وهو أقرب في الطريق من شارع
اسبلاناد ، حتى اندفع منه كابتن دزروول وعصابته
التي عقدت النية على قتل الملك ، فهاجوا العربة .
وعلى الرغم من أن الحراس المحيطين بالركب قد بوغتوا
بهذا الهجوم المفاجئ ، فأنهم ترجلوا وقتلوا المهاجمين
مستبسلين . واسترعى تقارع الأسلحة وضجيج القتال
أنظار كابتن تيترو ورجاله فاسرعوا لنجدة اخوانهم ،
ولكن حدث في الوقت نفسه أن ثارت نفس كابتن
دزروول ، بعد أن استولى عليه اليأس ، فانقض على
باب العربة وفتحه بمنف وصوب غدارته إلى صدر

وهب داود واقفا فنفض عوامل القلق والفكرة الحوشية التي استولت عليه ، وأدار وجهه إلى طريق القرية وعاد من حيث أتى . وما كاد يقطع الطريق حتى كان قد زال من نفسه كل أثر لفكرة الهجرة والبعد عن وطنه ، وصر بمخظيرة النعم التي ربت من وقع أقدامه في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فأحس من حركاتها بحرارة الحنين إلى الوطن فتسلل في هدوء إلى غرفته الصغيرة حيث رقد على فراشه شاكرًا لله أن نجت قدمه هذه الليلة من الانزلاق في طرق المخاطر .

وما كان أعرف الفتى بقلب المرأة ! ففي المساء التالي كانت إيفون واقفة مع الفتیان والفتيات التجمعين حول البئر للاشتراك مع القسيس في الصلاة ، وكانت الفتاة تنظر من طرف عينها باحثة عن ... ولو أنه يخيل إلى من يرى فيها الجامد أنها قاسية لم ترحم ، ورأى داود نظرتها ورأى على فيها ما يناقض النظرة فادرك أنها تحاول أن تخفي بحركة فيها حقيقة شعورها فلاطفها ، وبعد فترة حظى - وهما عائدان في الطريق - بقبلة من ذلك الفم الذي اصطنع الجفاء

وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ ذلك اليوم تزوج الحبيبان ، وكان أبو داود ميسر الحال كريمًا ، فأقام لزواجهما عرسًا سمع بمظلمته الناس إلى مسافة ثلاثة فراسخ . وكان العروسان محبوبين من أهل القرية جميعًا ، فمر الموكب في الطرق وأقيم المرقص فوق الأرض الخضراء ، وأحضر من بلدة درو بعض اللاعبين لتسلية الضيوف .

ومضى عام ومات والد داود ، وورث الفتى عنه البيت والقطيع . وكانت زوجته دون شك ألطف

المهيكل الأسود القابع في داخلها وأطلق النار .
والآن ، وقد أقيمت النجدة من الجنود المخلصين فقد علا الضجيج والصياح مصحوبًا بقعقة السلاح . على أن الخيل الجافلة قد اندفعت بالعربة على غير هدى وعلى فراش العربة رقدت جثة الملك الكاذب المسكين والشاعر الراعى ، وقد قتل برصاصة من غدارة السيد المركيز دى بويتريز .

الطريق الاصلبة

قطع الفتى ثلاثة فراسخ في خط مستقيم ، ثم وقف متحيرًا ، فقد التقت الطريق بطريق أخرى أوسع منها ترسم معها زاوية قائمة . فبقى لحظة لا يستقر على رأى ، ثم جلس ليستريح على جانب الطريق . لم يكن الفتى يعرف إلى أين تؤدى هذه الطرق ، وخيل إليه أن وراء كل منها دنيا واسعة مليئة بالفرص الحسنة وبالأخطار أيضًا . وبعد أن جلس فترة يفكر وقمت عينه على نجم متأللء في السماء ، وهو نجم اتفق هو وإيفون على أن يسمياه نجمهما . فحوت رؤيته أفكاره إلى إيفون ، فسأل نفسه ألم يتسرع في مغادرة القرية على هذه الصورة ؟ وهل يصح أن يترك حبيبته وبيته لغير سبب إلا أنه تبادل وهذه الحبيبة بضع كلمات حارة ؟ وهل كان الحب شيئًا هشا تقصفه الغيرة - وهي دليل صدقه - بمثل هذه السهولة ؟ وذكر أن الصباح يحمل دائمًا الشفاء للرؤوس التي يصدعها المساء . ورأى أن الوقت لا يزال متسعًا أمامه للعودة دون أن يشعر أحد من أهل القرية النيام بخروجه منها . لقد كان قلبه ملكًا لإيفون فهناك في القرية حيث عاش طوال عمره يستطيع إلى جانب حبيبته أن يقول الشعر وينعم بالسعادة .

يقضى وقته ناعساً . وأدركت الذئب أن صياغة الشعر والنعاس صنوان من الوجهة العملية ، فواصلت حملتها على القطيع ، واستمر عدد الخراف في النقصان وازداد خلق إيفون سوءاً تمشياً مع ازدياد ما يهدد حياتها البيتية من شقاء ، فكانت أحياناً تقف في الفناء وترفع صوتها لتسمع زوجها القابع في غرفته مانهال عليه من ألفاظ قاسيات .

وكان مسيو باينو المسجل المعجوز رجلاً شقيقاً يتدخل في شئون أهل قريته ينصح لهم بما يفيدهم ؛ وقد رأى ما صارت إليه حال داود فقصد إليه يوماً وقال : —

« يا صاحبي ميجنوت إني أنا الذي ختمت شهادة زواج أيبك ، لذلك يؤلني أشد الألم أن أضطر يوماً لنشر ورقة تعلن إفلاس ابنه ؛ ولكن هذه هي النتيجة التي أراك سائراً نحوها . فاصغ الآن لما أقول لك ، وثق أنني أخاطبك كصديق قديم : إني أراك عاقداً عزيمتك على مواصلة حياة الشعر والخيال . ولي صديق في درو اسمه مسيو بريل - جورج بريل وهو عالم يعيش وسط الكتب والأوراق . ويزور باريس كل عام ، وله مؤلفات عديدة . وهذا الصديق العالم الخبير هو الذي يحسن النصيحة لك متى اطلع على شعرك ، فإما نصح لك بالضي فيه أو نصح لك بالعود إلى العناية بامرأتك وأعمالك ، فإن شئت كتبت له خطاباً تحمله إليه وتضمني لما يدلي به إليك »

فقال داود :

« أكتب الخطاب وإنه ليؤلني أنك لم تخاطبني بذلك قبل هذا اليوم بزمان »

وعند شروق شمس اليوم الثاني كان داود يسير

وألقى امرأة في القرية ؛ شديدة العناية بأواني اللبن وأوعية الطهي ، فهي دائماً نظيفة لامعة ، وكانت إلى جانب ذلك ناعمة الصوت إذا غنت أشجت السامعين .

ولكن جاء يوم فتح فيه داود درجاً مقفلاً منذ زمان ، فأخرج منه أوراقاً وقرض بأسنانه طرف قلم من الرصاص ، وكان الربيع قد أقبل وحرك أوتار قلبه ، وما من شك في أنه كان شاعراً ، فقد نسي إيفون وهام قلبه بجمال الطبيعة وما تمثل فيها من بهاء وعظمة . وقد أثر في نفسه تأثيراً غريباً ذلك الشذا الجميل المنبعث من الغابات والمراعي . وكان من قبل يذهب كل يوم بقطيعه ويعود به في المساء سالماً إلى حظيرته . أما الآن فقد ألف الرقاد إلى جانب السياج يرص الكلمات بعضها إلى جانب بعض على صفحات القرطاس ، تاركا الغنم تشرود في كل مكان ، وأدركت الذئب أن انهماك الراعي في صياغة الأشعار تيسر لها الانقضاض على فرائسها المشتهاة ، فكانت تنسلل من الغاب إلى المرعى تخطف ماتشاء من الخراف .

ونما محصول داود من الشعر وتناقص عدد قطيعه ، وتسربت الحدة إلى أخلاق إيفون وقلت عنايتها بأوانيها ولكن عينها ما زالتا محتفظتين ببريقهما . ولقد صارحت زوجها بأن إهماله قد أدى إلى نقصان عدد القطيع وأنه سينزل الدمار بالبيت فاستأجر داود غلاماً يرعى الأغنام عليه ، وحبس نفسه في غرفته الصغيرة بأعلى البيت مكباً على صياغة الأشعار . وكان الغلام الذي استأجره لرعاية الغنم شاعراً بطبيعته ولكنه لم يكن يعرف الكتابة فكان

في طريق درو متأبطاً حزمة شعره النفيس . وعند ذلك نفض التراب عن نعليه أمام بيت مسيو بريل . وفض الرجل العالم غلاف خطاب مسيو باينو ، فلما قرأه أدخل داود إلى مكتبه وأجله على مقعد كأنه الجزيرة وسط بحر من الكتب .

وكان مسيو بريل رجلاً حى الضمير ، تناول حزمة الورق التي تحتوى شعر الفتى فكسر خاتمها وأخذ يقرأ ما فيها بسرعة العالم الخبير ودقة الناقد الصادق .

وكان داود في الوقت نفسه جالساً يضطرب في وسط ذلك البحر من العلوم ، وقد خيل إليه أن نصف العالم لا بد أن يكون من المؤلفين .

وانتهى مسيو بريل من قراءة المجموعة كلها فرفع نظارتيه عن عينيه ومسحهما بمنديلته وسأل داود : « ها ، يتمتع صديق باينو بصحة جيدة ؟ » فأجاب داود :

« إن صحته على خير ما يكون »

« كم عندك من الغنم يامسيو ميجنوت ؟ »

« ثلاثمائة رأس وتسعة رؤوس عند ما عدتها أمس . وقد أصاب القطيع سوء الحظ فأنحدر إلى هذا العدد بعد أن كان عدده ثمانمائة وخمسين رأساً »

« ولك زوج وبيت وتعيش في رخاء تدر الغنم عليك الخير الوفير وتذهب يومياً إلى الحقل فتستنشق الهواء الجيد وتأكل الخبز الأسمر اللذيذ . وليس عليك أن تليقظ وتتكىء هناك على صدر الطبيعة مصغياً إلى صفير الطيور السوداء بين الأحراج . . . فهل أنا مصيب الحقيقة ؟ »

فقال داود :

« لقد كان الأمر كما تقول »

فقال مسيو بريل وعيناه تدوران في بحر كتبه كأنهما تسيران مدى الأفق :

« لقد قرأت شعرك فانظر من خلال هذه النافذة وقل لي ماذا تري هناك على الشجرة يامسيو ميجنوت »

فنظر داود وقال :

« أرى غراباً »

فقال مسيو بريل :

« هنالك طائر ، وهذا ما يساعدني على أداء واجبي ، فهل تعرف هذا الطائر يامسيو ميجنوت ؟ إنه فيلسوف الجو ، إنه سعيد بقناعته بحظه ، وليس هناك من هو أسعد منه بنعيه وعينه المتقلبين وخطواته الطروب المرحية ، والحقول تزوده بما يطلب ، وهو لا يحزن أبداً لحرمائه من ريش جميل بهيج اللون كريش الصفارة الجميل . ولقد سمعت يامسيو ميجنوت النغمة التي خصته بها الطبيعة . فهل تظن أن البلبل أسعد من هذا الطائر حالا ؟ »

فهب داود واقفاً ، ونعب الغراب نعيًا عاليًا من موقفه فوق الشجرة وقل داود في ببطء :

« شكرا لك يامسيو بريل ، إذن لم تجد نغمة واحدة من نغمات البلبل بين كل هذا النعيب ؟ »

فقال مسيو بريل متنهدا :

« لو وجدت لها خفيت على . لقد قرأت كل كلمة . فدع الشعر أيها الرجل ، ولا تحاول أن تعالجه مرة أخرى »

فقال داود ثانية :

« أشكر لك نصيحتك وسأعود الآن إلى غنمي »

أن تكثر من مغادرة البيت والجلوس مع الجيران .
ولكن النار كانت مشتعلة في موقد المطبخ ، ففتح
داود باب الموقد وألقى بشمره فوق الفحم المتقد .
فكان لاحتراق الأوراق صغير خشن فقال الشاعر :
« هذا نعيم الغراب »

وصعد إلى غرفته فأقفل عليه بابها . وكان الجو
هادئاً فسمع كثير من الرجال صوت الطلق الناري ،
فجروا هنا وهناك ، وصعدوا درج السلم حيث استرعى
نظرهم الدخان .

ووضع الرجال جثة الشاعر فوق فراشه ، محاولين
أن يخفوا عن الأعين ريش الغراب الممزق : وتحدثت
النسوة معبرات في سيل من الألفاظ عما شعرن به
من شفقة وأسف ، وجرى بعضهم يحملن الخبر
إلى إيفون .

وكان أنف مسيو باينو الذي يشم رائحة شئون
الناس قد جذبته إلى دار القتل في طليعة القادمين
فالتقط الغدادة ففحص يدها المحلاة بالفضة فخص
الخبير وقد بدت عليه أمارات الأسى ، وقال يخاطب
القسيس :

« أرى على هذه الغدادة شعار السيد المركز
دي بويرتيز »

عبد الحميد ممدى

كتابنا الجديد
الموجز في المحاورات
هما خبر كتابي يعلمانك الفرنسية بنفسك
بأمان لجميع المطالع ومن كل منهما مجلد ٦

« ألا تتناول الغداء مع فأريك ماخفي عليك ؟ »
« لا . إذ يجب أن أعود إلى حقل فأرعى قطيعي »
وعاد داود في طريق فيرنوى متأبطاً شعره .
فلما وصل إلى قرية مال إلى حانوت يهودى من أرمينيا
اسمه زيجار يتجر بكل ما يصل إليه من أنواع البضائع
وقال له داود :

« يا صاحبي . إن الذئب تأتى من الغابة فتسلطو
على غنمي وتخطفها ولا بدلى من سلاح لأحميها .
فأى نوع لديك من السلاح ؟ »
فمد زيجار يديه وقال :

« إن هذا اليوم من أسوأ أيامي يا صاحبي ، إذ
أرائى مضطراً أن أبيعك سلاحاً لن تدفع فيه عشر
ثمنه . ففي الأسبوع الماضى فقط اشتريت من بائع
متحول عربية من البضائع ابتاعها في مراد على
حساب التاجر . وهو مراد فيه قصر وأمتعة
سيد عظيم — لا أعرف لقبه — كان قد نقي لتأمره
على حياة الملك . وبين هذه البضائع مجموعة من
الأسلحة النارية القيمة . وهذه الغدادة التى أقدمها
إليك خليقة بأن تكون سلاح أمير من الأمراء !
ولن أتقاضى منك ثمنها أكثر من أربعين فرنكا
يا صاحبي ميجنوت ، وبذلك أخسر عشرة فرنكات
من ثمن المشتري ، ولكن قد تراها من الطراز القديم ..

فقال داود وهو يلقى الثمن على مائدة التاجر :

« إنها كافية ، فهل هى محشوة ؟ »

قال الرجل :

« سأحشوها وإن دفعت عشرة فرنكات

أخرى أعطيتك كمية من الذخيرة والرصاص »

وضع داود الغدادة تحت معطفه وسار إلى بيته
فلم تكن إيفون هناك فقد تعودت في العهد الأخير